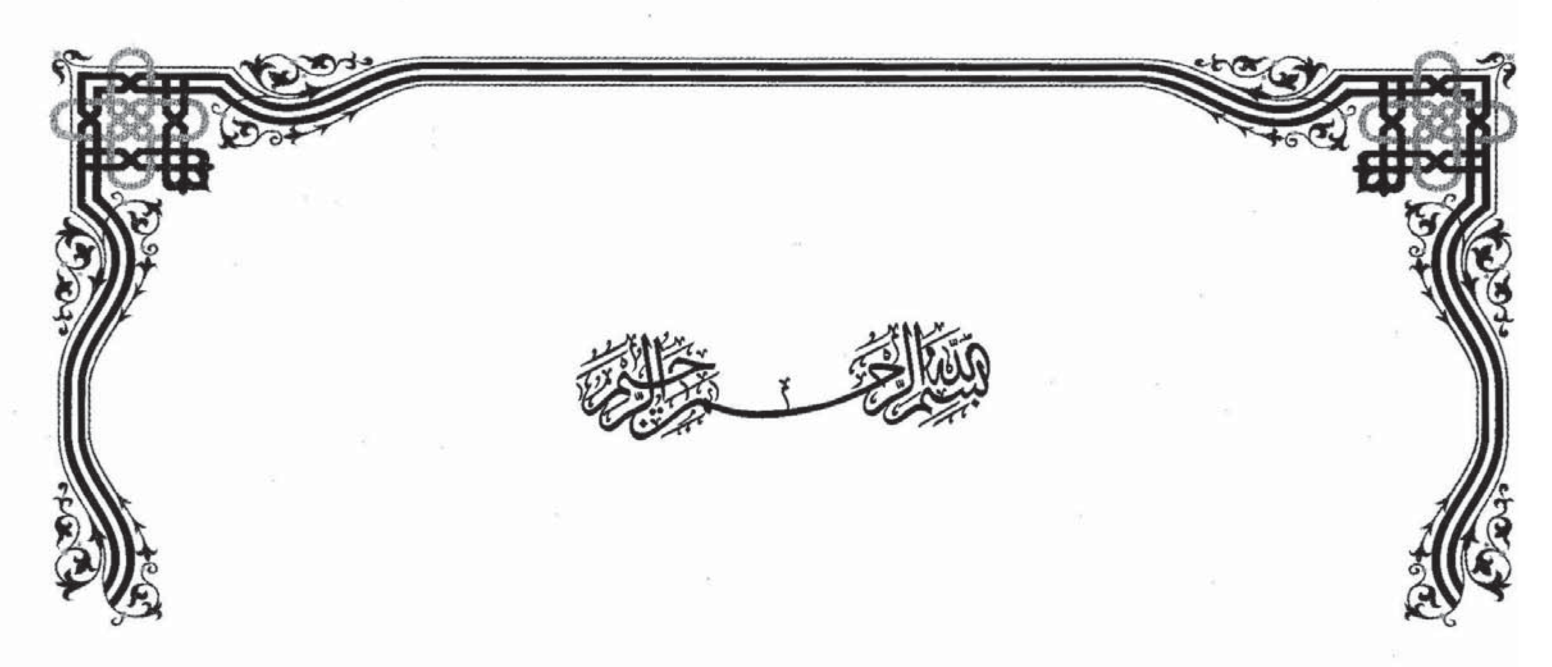
وجوب التعاون بين المسلمين

تأليف

الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله



وجوب التعاون على جميع المنافع الكلية وخصوصًا الجهاد

قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة: ٢]. فالبر اسم جامع لكل ما أمر الله به ورسوله، وأحبه الله ورسوله؛ من التحقق بعقائد الدين وأخلاقه، والعمل بآدابه وأقواله وأفعاله، من الشرائع الظاهرة والباطنة، ومن القيام بحقوق الله وحقوق عباده، ومن التعاون على الجهاد في سبيله إجمالا وتفصيلا، فكل هذا داخل في التعاون على البر.

ومن التعاون على التقوى التعاون على اجتناب وتوقي ما نهى الله ورسوله عنه من الفواحش الظاهرة والباطنة، ومن الإثم والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، بل على ترك الكفر والفسوق والعصيان. ويدخل في ذلك التعاون على جميع الوسائل والأسباب التي يتقى بها ضرر الأعداء؛ من الاستعداد بالأسلحة المناسبة للوقت، وتعلم الصنائع المعينة على ذلك، والسعي في تكميل القوة المعنوية والمادية المعينة على ذلك. قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء: ٧١]. فيدخل في هذا الاستعداد بكل المستطاع من قوة عقلية وسياسية وصناعية، وتعلم الآداب العسكرية، والنظام النافع، والرمي والركوب، والتحرز من الأعداء بكل وسيلة يدركها المسلمون، واتخاذ الحصون الواقية.

وقد أمر الله ورسوله بجهاد الكفار المعتدين - في آيات كثيرة وأحاديث متنوعة - بالنفس والمال والرأي، وفي حال الاجتماع، وفي كل الأحوال. والأمر بذلك أمر به وبكل أمر يعين عليه ويقويه ويقومه، وأخبر بما للمجاهدين في سبيله من الأجر والثواب العاجل والآجل، وما يدفع الله به من أصناف الشرور، وما يحصل به من العز والتمكين والرفعة، وما في تركه والزهد فيه من الذل والضرر العظيم؛ وتوعد الناكلين عنه بالخذلان والسقوط الحسي والمعنوي؛ وبين لهم الطرق التي يسلكونها في تقوية معنويتهم، فإنه حثهم على التآلف والاجتماع، ونهاهم عن التباغض والتعادي والافتراق. وذلك أن حقيقة الجهاد هو الجد والاجتهاد في كل أمر يقوي المسلمين، ويصلحهم ويلم شعثهم، ويضم متفرقهم، ويدفع عنهم عدوان الأعداء أو يخففه بكل طريق ووسيلة.



أقسام الجهاد وأنواعه

الجهاد نوعان:

- جهاد يقصد به صلاح المسلمين وإصلاحهم في عقائدهم وأخلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية والعملية، وهذا النوع هو أصل الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس.
- **النوع الثاني**: وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين، وجميع أعداء الدين ومقاومتهم. وهذا نوعان: جهاد بالحجة والبرهان واللسان، وجهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان.

هذا مجمل أنواعه على وجه التأصيل أما التفصيل فنقول:

الجهاد المتعلق بالمسلمين بقيام الألفة واتفاق الكلمة

قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٣]، وقال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩ - ١٠]. وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «**وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يكذبه ولا يخذله**»[1]، وقال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد**»[2]. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على هذا الأصل العظيم، فإن من أعظم الجهاد السعي في تحقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية، في جمع أفرادهم وشعوبهم، وفي ربط الصداقة والمعاهدات بين حكوماتهم بكل وسيلة.

ومن أنفع الأمور أن يتصدى لهذا الأمر جميع طبقات المسلمين من العلماء والأمراء والكبراء وسائر الأفراد منهم، كل أحد يجد بحسب إمكانه. فمتى كانت غاية المسلمين واحدة وهي (الوحدة الإسلامية) وسلكوا السبل الموصلة إليها، ودافعوا جميع الموانع المعوقة والحائلة دونها، فلا بد أن يصلوا إلى النجاح والفلاح.

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

(٢) مسلم (٢٥٨٦).

ومما يعين على هذا الإخلاص وحسن القصد فيما عند الله من الخير والثواب، وأن يعلموا أن كل سعي في هذا الأمر من الجهاد، وفي سبيل الله، ومما يقرب إليه وإلى ثوابه. وأن المصلحة في ذلك مشتركة، فالمصالح الكليات العامة تقدم على المصالح الجزئيات الخاصة. ولهذا يتعين عليهم ألا يجعلوا الاختلاف في المذاهب أو الأنساب أو الأوطان داعيا إلى التفرق والاختلاف؛ فالرب واحد، والدين واحد، والطريق لإصلاح الدين وصلاح جميع طبقات المسلمين واحد، والرسول المرشد للعباد واحد، فلهذا يتعين أن تكون الغاية المقصودة واحدة.

فالواجب على جميع المسلمين السعي التام لتحقيق الأخوة الدينية والرابطة الإيمانية، فمتى علموا وتحققوا ذلك، وسعى كل منهم بحسب مقدوره، واستعانوا بالله وتوكلوا عليه، وسلكوا طرق المنافع وأبوابها، ولم يخلدوا إلى الكسل والخور واليأس، نجحوا وأفلحوا؛ فإن الكسل والخور واليأس من أعظم موانع الخير، فإنها منافية للدين وللجهاد الحقيقي، فمن استولى عليه الكسل والخور لم ينهض لمكرمة، ومن أيس من تحصيل مطالبه انشلت حركاته ومات وهو حي. وهل أخر المسلمين في هذه الأوقات إلا تفرقهم، والتعادي بينهم، وخورهم، وتقاعدهم عن مصالحهم والقيام بشئونهم، حتى صاروا عالة على غيرهم. ودينهم قد حذرهم من هذا أشد التحذير، وحثهم على أن يكونوا في مقدمة الأمم في القوة والشجاعة، والصبر والمصابرة، والمثابرة على الخير، والطمع في إدراكه، وقوة الثقة بالله في تحقيق مطالبهم، ودفع مضارهم، وكمال التصديق بوعد الله لهم بالنصر إذا نصروه، وبالنجاح إذا سلكوا سبله، وبالإعانة والتسديد إذا كمل اعتمادهم عليه: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

الفرق العظيم بين رجال الدين وبين المخذلين المرجفين

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]. هذا نعت رجال الدين: الصدق الكامل فيما عاهدوا الله عليه؛ من القيام بدينه وإنهاض أهله، ونصره بكل ما يقدرون عليه؛ من مقال ومال وبدن وظاهر وباطن. ومن وصفهم الثبات التام على الشجاعة والصبر، والمضي في كل وسيلة بها نصر الدين. فمنهم الباذل لنفسه، ومنهم الباذل لماله، ومنهم الحاث لإخوانه على القيام بكل مستطاع من شئون الدين، والساعي بينهم بالنصيحة والتأليف والاجتماع، ومنهم المنشط بقوله وجاهه وحاله، ومنهم الفذ الجامع لذلك كله، فهؤلاء رجال الدين وخيار المسلمين، بهم قام الدين وبه قاموا، وهم الجبال الرواسي في إيمانهم وصبرهم وجهادهم، لا يردهم عن هذا المطلب راد، ولا يصدهم عن سلوك سبيله صاد، تتوالى عليهم المصائب والكوارث، فيتلقونها بقلوب ثابتة، وصدور منشرحة لعلمهم بما يترتب على ذلك من الخير والثواب والفلاح والنجاح.

وأما الآخرون، وهم الجبناء المرجفون، فبعكس حال هؤلاء؛ لا ترى منهم إعانة قولية ولا فعلية ولا جدية، قد ملكهم البخل والجبن واليأس، وفيهم الساعي بين المسلمين بإيقاع العداوات والفتن والتفريق. فهذه الطائفة أضر على المسلمين من العدو الظاهر المحارب، بل هم سلاح الأعداء على الحقيقة، قال تعالى فيهم وفي أشباههم: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. أي: يستجيبون لهم تغريرا أو اغترارا. فعلى المسلمين الحذر من هؤلاء المفسدين، فإن ضررهم

كبير وشرهم خطير، وما أكثرهم في هذه الأوقات، التي اضطر فيها المسلمون إلى التعلق بكل صلاح وإصلاح، وإلى من يعينهم وينشطهم.

فهؤلاء المفسدون يثبطون عن الجهاد في سبيل الله ومقاومة الأعداء، ويخدرون أعصاب المسلمين ويؤيسونهم من مجاراة الأمم في أسباب الرقي، ويوهموهم أن كل عمل يعملونه لا يفيد شيئا ولا يجدي نفعا. فهؤلاء لا خير فيهم بوجه من الوجوه؛ لا دين صحيح، ولا شهامة دينية، ولا قومية ولا وطنية، لا دين صحيح، ولا عقل رجيح. فليعلم هؤلاء ومن يستجيب لهم أن الله لم يكلف الناس إلا وسعهم وطاقتهم، وأن للمؤمنين برسول الله أسوة حسنة.

فقد كان له ﷺ حالان في الدعوة والجهاد: أمر في كل حال بما يليق بها ويناسبها؛ أمر في حال ضعف المسلمين وتسلط الأعداء بالمدافعة، والاقتصار على الدعوة إلى الدين، وأن يكف عن قتال اليد، لما في ذلك من الضرر المربي على المصلحة. وأمر في الحالة الأخرى أن يستدفع شرور الأعداء بكل أنواع القوة، وأن يسالم من تقتضي المصلحة مسالمته، ويقاوم المعتدين الذين تقتضي المصلحة، بل الضرورة، محاربتهم. فعلى المسلمين الاقتداء بنبيهم في ذلك، وهو عين الصلاح والفلاح.

وجوب المشاورة في كل الأمور الكلية وفوائدها

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال في وصف المؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وهذا يشمل جميع الأمور التي يحتاجونها، وتتعلق بها منافعهم الدينية والدنيوية. فعلى المسلمين أن يتشاوروا في تقرير المصالح والمنافع، وفي كيفية الوصول إليها، وفي تقرير الخطط التي يتعين سلوكها في صلاح أحوالهم الداخلية، وإصلاحها بحسب الإمكان، وفي الحذر من أعدائهم، ومقاومتهم، وسلوك الطرق السلمية أو الحربية بحسب ما تقتضيه المصلحة، وبحسب الأحوال والظروف الحاضرة، وأن يعدوا لكل أمر عدته، وتجتمع قواهم كلها وعزائمهم على ما اتفقت آراؤهم على نفعه ومصلحته، فإن المشاورة من أعظم الأصول والسياسات الدينية.

وفيها من الفوائد: امتثال أمر الله، وسلوك الطريق التي يحبها الله حيث نعت المؤمنين بها، وفيها الاقتداء برسول الله ﷺ فإنه مع كمال عقله ورأيه وتأييده بالوحي كان يشاور أصحابه في الأمور المهمة.

ومن فوائدها: أنها من أكبر الأسباب لإصابة الصواب، وسلوك الوسائل النافعة لاجتماع آراء الأمة وأفكارها، وتنقيحها وتصفيتها. مع أن الله يعينهم في هذه الحال التي فعلوا فيها ما أمرهم به ويسددهم ويؤيدهم.

ومنها: أن المشاورة تتنور فيها الأفكار، وتترقى المعارف والعقول، فإنها تمرين للقوة العقلية وتربية لها، وتلقيح للأذهان، واقتباس لبعضهم من آراء بعض.

ومنها: أنه قد يكون الصواب من مجموع رأيين أو ثلاثة أو أكثر، وإذا تقابل الصواب والخطأ ووزنتها العقول السليمة بالموازين العقلية التي لا تركن إلا إلى الحقائق الصحيحة ظهر الفرق بين الأمرين، ولا سبيل لذلك إلا بالمشاورة.

ومنها: أن المشاورة من أسباب الألفة والمحبة بين المؤمنين، وشعور جميعهم أن مصالحهم واحدة مشتركة، وتنبيه للأفكار والآراء على النافع والأنفع، وعلى الصالح والأصلح؛ فإن ترك المشاورة يخمد الأفكار ويضيع الفرص التي يضر تضييعها. ففتح باب المشاورة عون كبير في إصلاح الأمور وإكمالها وتجنب المضار.

وقد اتفق العقلاء على أن الطريق الوحيد لتحقيق الصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورى؛ والله قد أرشد المسلمين إلى هذا الطريق، وأن يسعوا في ترقية أحوالهم بها، وعلمهم كيفية الوصول إلى كل أمر نافع، فإذا تعينت المصلحة في أمر سلكوه، وإذا ظهرت المضرة في طريق تركوه، وإذا تشابهت عليهم المسالك وتقابلت المنافع والمضار رجحوا ما ترجحت مصلحته من فعل وترك، فلا يدعون مصلحة داخلية ولا خارجية إلا بحثوا فيها وتشاوروا عليها وعملوا على ما اتفقت عليه آراؤهم، وبذلك يحمدون ويشكرون ويفلحون.

وجوب الاستعداد للأعداء بكل قوة وأخذ الحذر منهم

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]. تضمنت هاتان الآيتان جميع ما يلزم المسلمين في مدافعة الأعداء ومقاومتهم، وذلك بالاستعداد بالمستطاع من قوة عقلية وسياسية ومعنوية ومادية، فدخل في ذلك تعلم أنواع الفنون الحربية، والنظام السياسي والعسكري، والاستعداد بالقواد المحنكين المدربين، وصناعة الأسلحة، وتعلم الرمي والركوب بما يناسب الزمان، وبأخذ الحذر من الأعداء بالتحرز والتحصن، وأخذ الوقاية من شرهم، ومعرفة مداخلهم ومخارجهم، ومقاصدهم وسياساتهم، وعمل الأسباب والاحتياطات للوقاية من شرهم وضررهم، وأن نكون منهم دائما على حذر في وقت السلم فضلا عن وقت الحرب، فإن جهل المسلمين بشيء من المذكورات نقص كبير فيهم، وقوة لعدوهم، وإغراء له بهم. فعلى المسلمين الأخذ بكل معنى من معاني الحذر، وبكل وسيلة من وسائل القوة والاستعداد، ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ٨٤]. فإن جهل المسلمين بشيء من ذلك وكسلهم عن العمل ضرره كبير، وبذلك يكونون عالة على غيرهم، وهذا عنوان الذل؛ فإن لله سننا كونية جعلها وسائل للعز والرقي، من سلكها نجح، ودين الإسلام يحث عليها غاية الحث.

الوجوب يتعلق بقدر القدرة والاستطاعة

قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]. وقال ﷺ: **«إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**[١]. فالله تعالى أمر بالجهاد بالنفس والمال، وبالأقوال والأفعال، وبالمباشرة وإعانة المباشرين، وبالدعوة والتحريض والتشجيع. وقد صح عنه ﷺ أنه قال: **«من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»**[٢]. فكل من في قلبه إيمان فلا بد أن يكون له نصيب من هذا الجهاد، وكل أحد فرض عليه أن يقوم بما يستطيعه من ذلك، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. فأهل الحل والعقد والرياسة من الملوك والأمراء والوزراء ورجال الدول الإسلامية عليهم أن يسعوا أحث السعي لتحصيل القوتين: القوة المعنوية والقوة المادية؛ وذلك بالسعي لإزالة الموانع والحواجز التي حالت بين المسلمين وبين اتفاقهم واجتماع كلمتهم، وأن يفهموا العوامل التي فرقتهم والأغراض المتباينة التي شتتتهم، وأن الأيدي الأجنبية تتوسل بذلك لتحصيل أغراضها، فمتى فهموها وعملوا على إزالتها بجد واجتهاد فلهم نصيب وافر من الجهاد في سبيل الله. وعلى أهل العلم من بيان فضل الجهاد ووجوبه، وتبيين منافعه الضرورية، وحض الناس عليه، والوعظ العام والخاص، أعظم مما على غيرهم. وعليهم أن يبينوا للناس أن جميع حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم ونفقاتهم المقوية للدين المعينة للمسلمين في دفع اعتداء المعتدي، كل ذلك، داخل في الجهاد في سبيل الله؛ فمتى عرف المؤمنون موضوع الجهاد، وأنه اسم جامع لسلوك كل سبب ووسيلة في إعلاء كلمة الدين، وفي مقاومة الأعداء والحذر والتحرز منهم، نشطوا للقيام به وأخلصوا لله فيه، والعمل الخالص الخالص نفعه كبير، وأجره عظيم. وكذلك يجب على كل فرد من أفراد المسلمين

(١) البخاري (٧٢٨٨)، مسلم (١٣٣٧).

(٢) مسلم (١٩١٠).

أن يبدي مجهوده في نصر المسلمين بما يقدر عليه من قول وفعل ودعاية وحض لإخوانه عليه وكل أحد عليه من القيام بوظيفته الخاصة ما ليس على الآخر: فالملوك والأمراء وقواد الجيوش عليهم من الواجبات بحسب مراتبهم ومقاماتهم، والجيوش العاملة عليها النهوض بوظيفتها، والتزام القوة والشجاعة والصبر، وعلى أهل الأموال بذل ما يحتاج المسلمون إليه في المنافع الكلية، وعلى أهل الصنائع النصح والجد في تعليم الصناعات النافعة للجهاد، فمتى قام كل أحد بوظيفته لم يزالوا في رقي وصعود، في دينهم ودنياهم، وعزهم وشرفهم.

وجوب الاجتهاد في فعل الأسباب النافعة مع التوكل على الله والاستعانة به

قد أمر الله في عدة آيات بالقيام بجميع الأسباب النافعة، والسعي في كل وسيلة فيها صلاح الأحوال، كما أمر في عدة آيات بالتوكل عليه والاعتماد على حوله وقوته. فبالقيام بهذين الأصلين العظيمين تقوم الأمور كلها وتتم وتكمل. والنقص والقصور إنما يجيء من الإخلال بهما أو بأحدهما، فالتوكل الذي لا يصحبه جد واجتهاد ليس بتوكل، وإنما هو إخلاد إلى الكسل وتقاعد عن الأمور النافعة؛ كما أن العمل بالأسباب من دون اعتماد وتوكل على مسببها واستعانة به مآله الخسار والزهو والإعجاب بالنفس والخذلان. فالجمع بين التوكل على الله وبين الاجتهاد في فعل الأسباب هو الذي حث عليه الدين، وهو الذي كان عليه سيد المرسلين، وبهما يتحقق الإيمان، وتقوى دعائم الدين، وبهما تقوى معنوية المسلمين، حيث اعتمدوا على رب العباد، وأدوا ما في مقدورهم من جد واجتهاد.

معرفة أحوال الأمم ودراستها ومعرفة سياساتها داخل في الجهاد

قد علم من قواعد الدين أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وأن الوسائل لها أحكام المقاصد. ولا يخفى أنه لا يتم التحرز من أضرار الأمم الأجنبية والتوقي لشرورها إلا بالوقوف على مقاصدهم، ودراسة أحوالهم وسياساتهم، وخصوصا السياسة الموجهة منهم للمسلمين؛ فإن السياسة الدولية قد أسست على المكر والخداع، وعدم الوفاء، واستعباد الأمم الضعيفة بكل وسائل الاستعباد؛ فجهل المسلمين بها نقص كبير وضرر خطير؛ ومعرفتها والوقوف على مقاصدها وغاياتها التي ترمي إليها نفعه عظيم، وفيه دفع للشر أو تخفيفه، وبه يعرف المسلمون كيف يقابلون كل خطر. ولهذا كان من أركان السياسة والقيادة المعرفة والوقوف التام على أحوال الأعداء، فالسياسة الداخلية لا تتم إلا بإحكام السياسة الخارجية.

من الجهاد القيام بالقسط والوفاء بالعهود

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١]، ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا ﴾ [النحل: ٩٢]. فهذان الأصلان العظيمان وهما القيام بالقسط الذي هو العدل التام، على الأنفس والأقربين والأبعدين والأصدقاء والمعادين، والوفاء بالعهود والمعاقدات كلها من أكبر أصول الدين ومصالحه، وبها يتم الدين، ويستقيم طريق الجهاد الحقيقي، وتحصل الهداية والإعانة من الله تعالى، والنصر والمدافعة. فما ارتفع أحد إلا بالعدل والوفاء، ولا سقط أحد إلا بالظلم والجور والغدر. وبهذين الأمرين - مع بقية أصول الدين - حصل للدين الإسلامي من العز والشرف والرقي وقهر الأمم الطاغية ما لم يحصل لغيره. وبهذه الروح - روح الرحمة والعدل والوفاء - وصل الدين الإسلامي إلى مشارق الأرض ومغاربها، ودانت به الأمم المتباينة طوعا وانقيادا ورغبة، وبتركه انتقض الأمر، ولم يزل الهبوط مستمرا، إلا أنه يحصل نفحات في بعض الأوقات بها ينتعش الدين إذا تشبث المسلمون بشيء من هذه المقومات النافعة.

ولهذا تجد القوات والحضارات الهائلة، التي يزعم أهلها أنها راقية في كل أحوالها لما كانت مبنية على الظلم والجشع والطمع وعدم المبالاة في ظلم الأمم الضعيفة، وكانت إذا قطعت عهودها ونفذت معاهداتها لم تبال بعد ذلك وفت أو غدرت، وإنما تلاحظ أطماعها الخاصة وأغراضها الردية ولسان حالهم يقول: السياسة مبنية على المكر والخدع والختر والغدر. لما كانت مع قوتها الهائلة مبنية على هذه الأصول المنهارة كانت هذه المدنية المزعومة والحضارة المدعاة مهددة كل وقت بالفناء والهلاك والتدمير؛ والواقع أكبر شاهد

على ذلك؛ فلو أنها بنيت على الدين الحق والعدل واتباع الحق والوفاء بالمعاقدات ونصر المظلومين لكانت مدنية آمنة، ولكنها في الحقيقة مادية محضة، والقوة المادية إذا لم تبن على الحق فإنها منهارة لا محالة، وربما كان سلاحها الفتاك هو مادة هلاكها وعقوبتها.

والمقصود، أن المسلمين بالمعنى الحقيقي لا يغترون بقوة هؤلاء الماديين، وإنما يقومون بالعدل التام في جميع أمورهم، وبالوفاء الكامل في حق الصديق والعدو.

وهذه الأمور كلها [ضرورية في][1] إلى التوكل على الله، والاعتماد على حوله وقوته، وكمال الثقة به في تيسير الأمور وتذليل الصعاب، فيكون المتوكل يعمل بجد واجتهاد، مطمئنا بالله، واثقا بوعده وكفايته، لا يرجو غيره ولا يخاف سواه، لا يملكه اليأس ولا يساوره القنوط؛ غير هياب ولا وجل ولا متردد، لأنه يعلم أن الأمور بيد الله، وأن نواصي الخليقة في قبضته وتحت تدبيره.

بهذا التوكل التام والعمل الكامل نال المسلمون الأولون العز والشرف والسلطان وصلاح الأحوال. وهذا الذي يجب أن يكون عليه المسلمون الآن، وأن يكون العمل والتوكل نصب أعينهم، فلا يميلوا إلى التواكل والتخاذل والإخلاد إلى البطالة والكسل، فإن هذا ينافي التوكل الحقيقي غاية المنافاة؛ كحال كثير من الناس في هذه الأوقات: يشاهدون عدوهم يحاربهم، ويسلبهم حقوقهم، وهم ساكتون لا يدفعونه بوسيلة من الوسائل، ولا يبدون ما يقدرون عليه من مقاومته التي لا يعذرون عن القيام بها، فتكون النتيجة من هذا السكوت والتقاعد الضار ضياع استقلالهم، وذهاب ملكهم وأموالهم، والسيطرة على حقوقهم وحلول المصائب المتنوعة بهم من كل جانب، ويقولون: نحن متوكلون. كلا والله، بل هم كسالى متواكلون، قد استولى عليهم الخور، وأعقبه الذل واستعباد الأجانب لهم.

---

(١) في المطبوع: (مضطرة إلى). ولعل المثبت أنسب للسياق.

ربط الصداقات وعقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية من الجهاد في سبيل الله

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٠]. فمن أهم مسائل الجهاد في هذه الأوقات عقد المعاهدات، وتوثيق المودة والصداقة بين الحكومات الإسلامية، مع احتفاظ كل حكومة بشخصيتها وحقوقها الدولية وإدارتها داخلا وخارجا، والتكافل بينها والتضامن، أن يكونوا يدا واحدة على من تعدى عليهم أو على شيء من حقوقهم، وأن يكون صوتهم واحدا، وتسهيل الأمور الاقتصادية فيما بينهم طلبا لمصلحة الكل وتقريب بعضهم من بعض، وأن يعملوا لهذا الموضوع أعماله اللائقة به، المناسبة للظروف الحاضرة، وأن يسعوا كل السعي لتحقيق هذا وإزالة جميع العقبات الحائلة دونه، والمعوقة له. وهذه الأمور وإن كانت في بادئ الرأي صعبة، وقد وضع الأعداء لها العراقيل المعوقة، فإنها يسيرة بتيسير الله وقوة العمل مع التوكل عليه.

واليوم وإن كان المسلمون مصابين بضعف شديد، والأعداء يتربصون بهم الدوائر، وهذه الحالة قد أوجدت في المسلمين أناسا ضعيفي الإيمان، ضعيفي الرأي والقوة والشجاعة، قد ملكهم اليأس والخور، يتشاءمون بأن الأمل في رفعة الإسلام قد ضاع، وأن المسلمين يتنقلون من ضعف إلى ضعف، فهؤلاء قد غلطوا أشد الغلط، فإن هذا الضعف عارض، له أسباب، وبالسعي في زوال أسبابه تعود صحة الإسلام كما كانت، وتعود إليه قوته التي فقدها منذ أجيال.

ما ضعف المسلمون إلا لأنهم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيه ﷺ وتنكبوا(١) السنن الكونية التي جعلها الله بحكمته مادة لحياة الأمم ورقيها في هذه الحياة. فإذا رجعوا إلى ما مهده لهم

(١) تنكبوا: تجنبوا الشيء وعدلوا عنه.

دينهم، وإلى تعاليمه النافعة وإرشاداته العالية، فلا بد أن يصلوا إلى الغاية كلها أو بعضها. وهذا المذهب المهين - مذهب التشاؤم - لا يرتضيه الإسلام، بل يحذر منه أشد التحذير، ويبين للناس أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسرا، وأن المسلمين إذا عملوا بتقوى الله وبالأسباب التي أرشدهم الله إليها واقتدوا بنبيهم فيها، وصبروا، فلا بد أن يفلحوا وينجحوا.

فليتق الله هؤلاء المتشائمون، وليعلموا أن المسلمين أقرب الأمم إلى النجاح الحقيقي والرقي الصحيح، لأن دينهم كله عروج وصعود في عقائده وآدابه، وأخلاقه ومقاصده وأسبابه، وجمعه بين مصالح الدنيا والآخرة، ومنافع الروح والجسد.

ويقابل هؤلاء طائفة يؤملون الآمال بلا قوة ولا أعمال، ويقولون ولا يفعلون، فتراهم يتحدثون بمجد الإسلام ورفعته، وأن الرجاء والطمع في ذلك غير بعيد، ولكنها أقوال بلا أفعال، ولا يصحبها سعي لا قوي ولا ضعيف، ولا يقدمون لدينهم منفعة بدنية ولا مالية، ولا يساعدون على مصلحة عامة كلية. وهذا كله غرور واغترار، ويترتب عليه أنواع من الشرور والمضار.

وأما رجال الدين الذين هم غرة المسلمين، وهم رجال الدنيا والدين، فهم الذين أبدوا جدهم واجتهادهم، وقرنوا بين الأقوال والأفعال، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأقوالهم ودعاياتهم، وإنهاض إخوانهم، وتبرءوا من مذهب المتشائمين، ومن أهل الأقوال الخالية من الأعمال. قد نهضوا بأمتهم، وقصدوا في سعيهم الغايات الحميدة، وسلكوا طريق المجد. فهؤلاء هم الرجال الذين يناط بهم الأمل، وتدرك المطالب العالية بمساعيهم المشكورة وأعمالهم المبرورة.

الاعتناء بالتربية والتعليم من أصول الجهاد

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ [التحريم: ٦]. وذلك بالتعليم والتأديب والتربية. وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]. وذلك أن من أعظم أصول الإصلاح والجهاد التربية الدينية والاهتمام التام والاعتناء الكامل بشباب الأمة، فإنهم محل رجائها وموضع أملها، ومادة قوتها وعزها. وبإصلاح تربيتهم تصلح الأحوال، ويكون المستقبل خيرا مما قبله. فعليهم أن يربوهم تربية عالية، ويبثوا فيهم روح الدين وأخلاقه الجميلة، والحزم والعزم، وجميع مبادئ الرجولة والفتوة والمروءة، وأن يدربوهم على الصبر وتحمل المشاق الذي يفضي إلى النجاح والمثابرة في كل عمل نافع، ويحذروهم من الجبن والكسل، والسير وراء الطمع والمادة، والانطلاق في المجون والهزل والدعة، فإن ذلك مدعاة للتأخر الخطير. وشباب الحاضر هم رجال المستقبل، وبهم تعقد الآمال وتدرك الأمور المهمة، فعليهم أن يجتهدوا ليكونوا في خصال الخير والفضائل المثل الأعلى، وبأوصاف الحزم والمروءة والكمال القدوة المثلى.

ومن أعظم أركان التربية العامة النافعة إصلاح التعليم، والاعتناء بالمدارس العلمية، وأن يختار لها الأكفاء من المعلمين والأساتذة الصالحين الذين يتعلم التلاميذ من أخلاقهم الفاضلة قبلما يتلقون من معلوماتهم العالية. ويختار لها من فنون العلم الأهم فالأهم من العلوم النافعة الدينية والدنيوية المؤيدة للدين. وأن تكون العلوم الدينية هي الأصل والأساس الأقوم، ويكون غيرها تبعا لها ووسيلة إليها؛ وأن يكون الغرض الوحيد من المتخرجين في المدارس الناجحين في علومها أن يكونوا صالحين في أنفسهم وأخلاقهم وآدابهم، مصلحين لغيرهم، راشدين مرشدين، مهتمين بتربية الأمة. فإن كثيرا من المدارس الآن التعليم فيها

قاصر جدا، لا يعتنى فيه بأخلاق التلاميذ، ويكون تعليم الدين فيها ضعيفا، ويكون الغرض منها المادة، وأن يخرج منها تلاميذ يصلحون للوظائف الدنيوية المادية البحتة؛ وهذا ضرره كبير، وسبب للضعف والانحلال. ولا ريب أن السعي في إصلاح التعليم من أهم المهمات، وبه ترتفع الأمة وتنتفع بعلمائها وعلومهم، فالتعاليم النافعة، والتربية الصالحة، تقود المسلمين إلى كل خير وفلاح، وتكون العلوم مقصودا بها الصلاح والإصلاح.

من الجهاد ورعاية الأمانة
تخير الأكفاء من الرجال في الولايات والأعمال

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦]. وأعظم وأولى ما يدخل في الأمانات الولايات كلها، كبيرة كانت أو صغيرة، وتخير الرجال الكمل من أعظم التعاون على البر والتقوى، ومن قواعد الجهاد وأصوله؛ فإنه لا يتم الجهاد إلا بذلك، بل لا تتم الأحوال كلها إلا بذلك. وكما أنه يلزم الاعتناء والاستعداد بالحصون المنيعة والسلاح القوي والجيوش المنظمة العاملة والأهب الوافرة فكذلك يلزم الاستعداد بالرجال الأكفاء على جميع الأعمال، وأن يولى في الولايات كلها أهل القوة والكفاءة والعقل، والرأي والسياسة والحزم والعزم، والتدبير الموفق، والدين القوي، والنصح الكامل، وأن يكونوا من أصل راسخ في الكمال، ومن أهل الشجاعة التامة؛ وإذا لم يدرك الرجل الكامل في هذه الأوصاف فيختار الأمثل فالأمثل. فهؤلاء الرجال هم الذين يقومون بشئون المملكة، ويوطئون بساط الأمن وطرق الراحة، ويرفعون بناء الملك على طريق العدل، ويوقفون الرعية على حدود الشريعة، ويراقبون مع ذلك روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية، ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها، بالمعاهدات السلمية والاقتصادية وغيرها.

ومن أكبر الخيانة والخطر تولية غير الناصحين أو غير الأكفاء العارفين، فإن تمام الولاية مجموع بشيئين:

أحدهما، الخبرة والكفاية التامة بالقيام بشئون ذلك العمل، أي عمل كان، فيولى في كل عمل أكمل من يحصل به مقصود تلك الولاية، وإن كان ناقصا في غير ذلك العمل.

الثاني، الأمانة والنصح، فمتى اجتمع الأمران: القوة على ذلك العمل، والأمانة التامة تمت الأمور، واستقامت الأحوال. ومتى فقد الأمران أو أحدهما وقع النقص والخلل بحسب ما نقص منهما.

وتتعين المشاورة في انتخاب الرجال الكمل الذين أخص صفاتهم الاقتداء بنبيهم، والاهتداء بسيرته وهديه، في الجد الكامل لتقوية الإسلام والمسلمين وتكوين الأمة وتربية أخلاقها، وأن يكونوا على جانب من العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعرفة تاريخ الدول الإسلامية ورجالها، والعلم بأسباب الضعف والانحلال الداخل على الأمة، والسعي بإزالتها أو تخفيفها، مهما أمكن الأمر. وأن يكونوا ذوي قوة وأمل ورجاء واسع، لا يملكهم اليأس ولا يتطرق إليهم الفتور. وأن يكونوا متصلين بأفراد المسلمين وجميع طبقاتهم اتصالا وثيقا، ويتعرفون بشئونهم ويسألون عن أحوالهم ويأخذون بآرائهم الصائبة ويستمدون من عقولهم القوية. وأن يحبوا لهم من الخير ما يحبون لأنفسهم، ويسعوا في ذلك الخير لهم. وأن يكونوا أصحاب فكر ثاقب، وسياسة وخبرة، وانتهاز للفرص النافعة، وكثرة مشاورة للرجال الناصحين. وأن يكون لهم علاقات مع جميع العاملين من المسلمين في أنحاء العالم: يبدون لهم ودهم، ويستشيرونهم، ويستنيرون بآرائهم، ويأخذون بالناضج المصيب منها. وأن يكونوا مع ذلك عارفين بسياسات الأجانب، عارفين بحقوقهم، آخذين الحذر من مكرهم وكيدهم وخداعهم، يعاملونهم لمصلحة المسلمين، ويأخذون الحذر منهم خوف الضرر على المسلمين، عملهم كله لمصلحة الإسلام والمسلمين، وهم مع ذلك كله مخلصون لله متوكلون عليه معتمدون في جميع أمورهم عليه.

فهذه أوصاف الرجال الذين ينبغي تخيرهم؛ والواحد من أمثال هؤلاء يعدل أمة. وعلى أهل الحل والعقد أن يتقوا الله ما استطاعوا، ويولوا الأكمل فالأكمل. والله أعلم.

شرح محاسن الدين الإسلامي وبيان عقائده وأخلاقه وأحكامه وإصلاحه من أعظم الجهاد

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]. أي بهذا القرآن، وبما جئت به من الدين، وذلك بالدعوة إليه وتبيين أنه دين العدل والرحمة والحكمة والخير والصلاح، للظاهر والباطن، والدين والدنيا.

وأعظم جهاد النبي ﷺ للخلق بهذا النوع، فإنه مكث مدة طويلة يدعو إلى الله، ويبين للعباد محاسن الدين، ويقابل بينه وبين ضده من أديان أهل الأرض المنحرفة، ومن جاهليتهم الجهلاء، حتى دخل الخلق العظيم فيه متبصرين، مقتنعين أنه الدين الحق، وأن ما سواه باطل، بالبراهين العقلية والفطرية، والآيات الأفقية والنفسية. قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا الجهاد هو الأصل، وقتال اليد والسلاح تبع لهذا لكل معتد على الدين. قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فهذا الدين الإسلامي، بعقائده وحقائقه وأخلاقه وأعماله، وما جاء به من القرآن، أكبر البراهين القواطع الضرورية الدالة على أن الله هو الحق، ورسوله حق، ودينه حق، وما عارض ذلك هو الباطل. وهو بنفسه جذاب لكل من قصده الحق ومعه إنصاف. فإنه إذا نظر وحقق عقائده فإنه يدعو إلى الإيمان الصحيح بالله، وبأوصافه العظيمة، وأسمائه الحسنى، وبكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، وبكل حق أخبر الله به ورسوله. وبذلك تمتلئ القلوب إيمانا ويقينا ونورا وطمأنينة بالله، وقوة توكل واعتماد عليه. وذلك يوجب كمال الإخلاص لله، والقيام بعبوديته الظاهرة والباطنة والتبرؤ من الشرك كبيره وصغيره.

وإذا نظر إلى أخلاق الإسلام وجدّه رآه يحث على كل خلق جميل، ويحذر من كل خلق رذيل، ويدعو إلى القيام بحقوق الله وحقوق عباده وبالمعاملة الحسنة. وإذا نظر إلى تعاليمه وإرشاداته العالية رآه يحث على كل علم نافع مزك للقلوب، مطهر للأخلاق، نافع للدين والدنيا، وأنه مرشد إلى كل صلاح وإصلاح.

فشرح هذه الأمور للناس من أعظم الجهاد، فإنه يقوي إيمان المؤمنين، وتزداد به بصائرهم ورغبتهم، ويحمدون الله الذي من عليهم بهذا الدين الكامل الذي حوى كل خير علمي وعملي، وكل هداية ورحمة، وهو السبب الوحيد إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وكذلك هو أكبر داع لمن وقف على حقيقته من الأجانب، وخصوصا المنصفين منهم: فمريد الحق إذا وقف على حقيقته لم يتوقف في تفضيله على كل دين، والمكابر يزلزل عقيدته ويخفف شره، وبه تندفع شبه المبطلين من الملحدين وغيرهم، فإن الحق يستولي على القلوب ويزهق الباطل، فإنه من عرف الحق معرفة صحيحة امتنع أن يقوم بقلبه باطل يقدمه عليه، إلا إذا عارض ذلك غرض فاسد من كبر أو حسد أو رياسة أو تعصب أو غيرها.

ومن تأمل هذا الدين رآه يدعو إلى الصلاح والرشد والفلاح، والكتاب والسنة كفيلان ببيان ذلك كفالة تامة، فيهما الآيات والبراهين على أنه محال أن يحصل الصلاح الحقيقي، ولا سبيل للبشر إلى الإصلاح والخير والسعادة إلا بهذا الدين، فإنه ما من مصلحة دقيقة ولا جليلة إلا أرشد إليها هذا الدين، ولا خير إلا دل عليه، ولا شر إلا حذر منه: يأمر بتوحيد الله والإيمان به، ويحث على العلم والمعرفة والإذعان، ويأمر بالعدل والصدق في الأقوال والأفعال، وبالبر والصلة والإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب والمعاملين وجميع الخلق، وينهى عن الكذب، والظلم والقسوة، والعقوق والبخل، وسوء الخلق مع الأولاد والأهل والأصحاب وغيرهم، ويأمر بالوفاء بالعقود والعهود والمحالفات، وينهى عن النكث[1] والغدر، ويأمر بالنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، وينهى

(١) النَّكْثُ: نَقْضُ ما تَعْقِدُه وتُصْلِحُه من بَيْعَةٍ وغيرها.

عن الغش. يأمر بالاجتماع والتآلف والتحابب والاتفاق، وينهى عن التعادي والتباغض والافتراق. يأمر بالمعاملات الحسنة وأن توفي ما عليك كاملا موفرا لا بخس فيه ولا نقص ولا مماطلة، وينهى عن المعاملات السيئة والمطل والغش والبخس والتطفيف وأكل المال بالباطل وبغير حق. يأمر بأداء الحقوق الخاصة والمشتركة، ينهى عن ضدها، وعن التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم بغير حق. يأمر بكل معروف وطيب ونافع ومستحسن شرعا وعقلا وفطرة. وينهى عن كل فاحشة ومنكر وخبيث شرعا وعقلا وفطرة. يبيح كل طيب، ويحرم كل خبيث. يأمر بالتعاون على البر والتقوى، وينهى عن التعاون على الإثم والعدوان. يأمر بعبادة الله وحده، وخوفه ورجائه وحده، والطمع في جوده وفضله، والتنوع في فعل الأسباب المحصلة لخيره وثوابه، وينهى عن التعلق بالمخلوقين والعمل لأجلهم. يأمر بنبذ الوثنيات والخرافات المفسدة للعقول والأديان. وبالجملة يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وضرر.

فشرح الدين على نحو هذه الطريقة شرحا وافيا، وتطبيق تعاليمه وهدايته على أحوال البشر، وبيان أنها صالحة لكل زمان ومكان ولكل أمة، وأن الانحراف والشر والضرر إنما يكون بفقد روح الدين أو نقصها، وكذلك شرح أوصاف النبي ﷺ ونعوته وأخلاقه التي من تدبرها وعرفها وفهمها حق الفهم علم أنه ﷺ أعلى الخلق في كل صفة كمال، وأن كل صفة كمال له منها أعلاها وأكملها، وأن الكمالات الموجودة في الرسل، صلى الله عليهم وسلم، قد جمعت فيه على الوجه الذي لا يماثله فيه أحد، وبذلك صار سيد الخلق ومقدمهم وإمامهم وأرفعهم عند الله قدرا وأعظمهم جاها.

نبذة من أخلاقه وأوصافه ﷺ وشيء من سيرته الدالة على أنه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به من الدين هو الحق على وجه الإيجاز

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. ومن نظر إلى سيرته ﷺ في مبدأ أمره ومنتهاه وبين ذلك وتطورات أحواله، وما حصل بذلك من الأحوال والانقلاب العجيب في العقائد والأخلاق والآداب والتشريع العادل الرحيم والخير والرحمة مما لم يعهد له نظير في تاريخ البشر، وبعدما كانت الأرض مملوءة من الشرك والوثنية المستولية على عقول أكثر الخلق، والإلحاد والظلم والشر والفساد وسفك الدماء وقطيعة الأرحام والمعاملات السيئة بكل وجوهها، استبدلت بأضدادها من عبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بعبوديته التي خلق لها الخلق، وبالقسط والعدل في جميع الحقوق، وبصلة الأرحام، والإحسان إلى جميع طبقات الخلق - عرف[1] أن هذا من أكبر براهين رسالته ﷺ، وكمال دينه وشريعته، وأنه أعظم مرشد ومصلح للبشر على الإطلاق.

فقد كان ﷺ معروفا بين قومه بشرف النسب، وأن بيته أعظم بيوت العرب وخيرها. وكان معروفا بين قومه قبل بعثته بالصدق الكامل، والأمانة التامة، والبر والعدل ومكارم الأخلاق، متربيا على الأخلاق الجميلة، متنزها عن الأخلاق الرذيلة، لا يعرف له شيء يعاب به لا قليل

(١) السياق: ومن نظر إلى سيرته .... عرف.

ولا كثير، ولا جرب عليه كذبة واحدة ولا خيانة ولا ميلًا في شيء من أقواله وأفعاله. وكان نقي القلب، ناصحا للقريب والبعيد، وصولا للأرحام، موفيا بالعهد والذمام، حاملا للكَلّ، معينا على نوائب الحق، متواضعا لله ولعباد الله. حليما صبورا عفوا محسنا، كامل العقل والرأي، حازما مسددا موفقا في حركاته وسكناته، مع أنه قد نشأ مع أمة أمية لا تعرف الكتب ولا تدرس الشرائع، وهو في نفسه لا يقرأ ولا يكتب: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦]. فلم يزل محببا له الخير، فعالا له، متنزها عن جميع الشرور، حتى فاجأته الرسالة والوحي من الله تعالى، ورحم الله به الخلق فجاءهم برسالة عظيمة عامة فيها صلاح البشر كلهم وسعادتهم، وجاءهم بكتاب كريم لم يطرق العالم كتاب أعظم منه ولا أجل ولا أجمع لكل خير ولا أغزر علما منه. وأخبرهم بأمور عظيمة وتفاصيل جمة لم يكن في قومه من كان يعرفها، ولا في الأرض أحد عنده علم صحيح ينافيها وينكرها. وأعلن بهذه الرسالة غاية الإعلان لعلمه اليقيني الذي لا ريب فيه أنها الحق، واعتماده على الحق، ووثوقه بوعد الله بالظهور. مع كثرة الأعداء وتوفر المعارضين، من أهل الكتاب والأميين وغيرهم، فبادأهم وصرح لهم بإنكار ما هم عليه من الشرك والشرور والأخلاق الرذيلة، وأن شريعته نسخت جميع الكتب، وهيمنت على كل الشرائع السابقة. فرماه الجميع بقوس العداوة، وجدوا واجتهدوا في رد ما جاء به، ونصر باطلهم. وتحدى قاصيهم ودانيهم وأولهم وآخرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فما استطاعوا ذلك، ولا قدروا على رد شيء من دينه، مع أنهم مكروا مكرا كبارا، وأتوا بكل وسيلة وحيلة، فرجعوا منهزمين أمام الحق خائبين، والمنصف منهم لم يجد بدا من الاعتراف، والجاحد المعاند المكابر طفق ينصر باطله، فلم يبد حجة ولا برهانا، بل ولا شبهة يتكئ عليها.

ومن أكبر أدلة الحق معرفة ما قاله أعداؤه ومعرفة حججهم التي لا تغني من الحق شيئا. وجاء ﷺ للخلق وحده، لم يكن له في أول الأمر أعوان ولا أنصار، إلا الحق الذي هو نعم

العون على الأمور كلها، فلم يزل يتبعه الواحد بعد الواحد من أولي البصائر والألباب والعقول الرزينة، على شدة عظيمة، ومقاومات من الأعداء عنيفة، فلم تزعجهم الكوارث، ولا عوقهم عن قبول الحق خوف ولا ضغط من الأعداء، وأعداؤه هم أهل الرياسة ولهم السيطرة، فعادوه وعادوا أتباعه، وآذوهم أشد الأذية، وحرصوا على صرفهم عن دينهم، فلم يكن لهم بذلك طاقة ولا اقتدار، لأن إيمانهم صحيح ويقينهم تام، لم يؤمنوا لرغبة بذلها الرسول ولا رهبة، وإنما الرغبة والرهبة في ذلك الوقت عند أعدائه، ولكن هو الإيمان الحق متى وقر في القلوب لم يرتد عنه صاحبه سخطة له، بل يراه أحب الأشياء إليه، وألذها لقلبه، وأعظمها فوزا وسعادة. فلم يزل ﷺ يدعو إلى هذا الدين بعزم صادق، وهمة لا تني ولا تضعف، ويقين وثقة بوعد الله، مع قوة المعارضات وشدة المقاومات من جميع الأعداء، ويتتبع العرب في مواسم الحج وغيره في منازلهم يدعوهم إلى الله وإلى دينه، والمتبع له إذ ذاك أفراد من الموفقين أولي البصائر، وأكثرهم معرضون ومعارضون مقاومون، وهو صامد لأمر الله، مصمم على الدعوة لعباد الله، مستقيم على أكمل طريقة من الصدق والعدل، والوفاء بالعهد، لا يتزعزع عن الاستقامة والأخلاق الفاضلة، والنصح والقوة في أمر الله، والشجاعة التي لا نظير لها في الأولين والآخرين، مع اختلاف الأحوال عليه من خوف وأمن، وفقر وغنى، ويسر وعسر، وضيق وسعة. فدخل الناس في دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام في مكة مع الضغط العظيم، وانتشر في المدينة أكثر من ذلك، فأذن لأصحابه في الهجرة إلى المدينة ليتمكنوا من إقامة دينهم، فجعلوا يهاجرون إليها أفرادا وجماعات. وفي ذلك الوقت عقد الرؤساء من قومه المجالس المتعددة للإيقاع به، وإطفاء النور الذي جاء به، ومكروا المكرات العظيمة، والله يكلؤه ويحفظه. وحين بلغ الأمر أشده، وعزموا على الإيقاع والفتك به، ورتبوا أمرهم وأجمعوا كيدهم أذن الله له بالهجرة فخرج في تلك الحال الحرجة إلى الغار هو وأبو بكر مختفيين وبوعد الله واثقين. واشتد الطلب، وعز التخلص والهرب، ولكن لطف الله ونصر الله فوق مكر الماكرين، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]،

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] الآية. وهذا النصر من أكبر الآيات والبراهين على عناية الله به وحفظه إياه ووعده الصادق بتمام أمره ودينه. ثم هاجر إلى المدينة وعناية الله تصحبه، وحفظه وتوفيقه يرافقه، فتلقاه المسلمون، وكل قبيلة من قبائل الأنصار تدعوه إلى النزول عندها وتقول: هلم يا رسول الله إلى العدد والعديد، فاختار الله له ذلك المنزل الذي بركت فيه ناقته ليكون مسجدا له ومساكن لنسائه، فاختط مسجده هناك، وعمل فيه مع المسلمين، وبنى مساكن زوجاته بجواره، وسر المسلمون بقدومه. ولم يزل الله يشرع له الشرائع الكبار شريعة بعد أخرى بحسب المناسبات، ثم أذن له في القتال لما اشتدت مقاومات الأعداء بكل طريق، فلم يزل معهم يدال عليهم ويدالون عليه حتى صارت له العاقبة والنصر عليهم. ودخل الناس في دين الله أفواجا حين شاهدوا أنوار الإسلام وهداية القرآن وإرشادات الدين، وكان دينه الحق وما جاء به من أكبر الأسباب لدخول الخلق في الدين، فإنه يدعوهم بنفس الحق الذي جاء به، والذي تنقاد له القلوب السليمة والعقول الصحيحة، وتلين له الصعاب، ويختاره أولو البصائر والألباب الرزينة والآراء الصائبة، لما يرون من إصلاحه العقائد والأخلاق والأعمال كلها، ودعوته للصلاح المطلق بكل وجه واعتبار. وهذا وجه إدخاله في الجهاد، إذ هو أصله وأساسه، فإن الغرض من الجهاد انقياد الخلق للحق، ودخولهم في الدين الحق، وأكبر وسيلة لذلك معرفة ما جاء به الرسول، والوقوف التام على حقائق الدين. وما زال ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وبكل طريق يوصل إلى الهداية، ويجادل المبطلين بالتي هي أحسن، حتى أكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين، وجمع الله به أمما متباينة وقلوبا متفرقة وأهواء متشتتة، وأصلح الله به الظواهر والبواطن وكل أمر فاسد. وبعدما كانت الأرض مملوءة من جميع أصناف الشرور، محقها الحق الذي جاء به، حتى امتلأت من الحق والعدل والرحمة والخير والنور،

فمحا الظلمات المتراكمة، وحق الحق، واضمحل الباطل وزهق، إن الباطل كان زهوقا. فمعرفة الآثار والمنافع العامة العظيمة التي حصلت لأهل الأرض برسالته ودينه من أكبر البراهين الدالة على رسالته، وصحة ما جاء به من الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه، وهو دين جميع الرسل وأتباعهم، فهو الدين الذي أخباره في أعلى درجات الصدق، وهو الذي ما أمر بشيء فقال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به، بل لو اجتمعت عقول الحكماء وسائر العقلاء على اقتراح دين أحسن منه وأصلح وأنفع للعباد لعجزت أفكارهم عن أن تصل إلى ما يقاربه. وأكمل الناس عقلا من حصلت له به الهداية والرشاد، فإنه تنزيل من حكيم حميد. ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله هدى ورحمة ونورا وحكمة ورشدا، وحث فيه على كل إصلاح في أصوله وفروعه، وأرشد إلى المنافع الدينية والدنيوية.

ثم إنك إذا تأملت أحوال النبي ﷺ وتنقلاته في دعوة الخلق ومعاملاتهم من أوليائه وأعدائه رأيت فيها الهدى الكامل والنصح التام، ورأيت آثار دعوته ملأت قلوب المسلمين علما ويقينا ومعارف ربانية، واهتدوا بها إلى كل خلق جميل وتنزهوا عن كل خلق رذيل، فكما كانت آثار رسالته في نفسه أكمل الآثار فتجمعت فيه أصناف الفضائل والكمالات على أكمل وجه، وصار بذلك أكمل البشر في كل الأمور مطلقا، فكذلك كانت آثار رسالته في أصحابه وأمته أكمل الآثار وأفضلها وأجلها، فلم يصل أحد من الأمم إلى ما وصل إليه أصحابه وأئمة الهدى من أمته وطبقات أهل العلم والإيمان من المعارف الصحيحة، والعلوم النافعة، والمعارف الربانية، والإيمان الصحيح، واليقين الكامل، والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، والرحمة بالخلق، والإحسان والعدل، وهذا من براهين صدقه وصحة ما جاء به.

وكذلك من براهين رسالته أنه في هذه المدة القصيرة مكنه الله وبارك في عمره الشريف حتى أسس هذا الدين الذي هو أكمل الأديان وأعمها وأهداها للخلق، فقرر أصوله وفروعه، وحصل به صلاح الدين وصلاح الدنيا، وصار المثل الأعلى والقدوة للخلق فيما يأتون

وما يذرون، وما يقولون ويفعلون. إن حُققت العقائد الصحيحة، والأخلاق الرجيحة النافعة المصلحة للقلوب، جعل الميزان فيها عقيدته وأخلاقه، وإن فصلت علوم الشريعة على سعتها وتنوعها كانت كلها مأخوذة من شريعته وتعليمه، وإن أريد الوصول إلى علم السياسة وفنون الحرب والسلم ومعاملة الأعداء من جميع الوجوه كان المدار فيها على هديه وعمله وإرشاده، وإن طلب علم الولايات كلها صغارها وكبارها: من الإمامة العظمى إلى ولاية الإنسان على عائلته وأهل بيته لم يوجد أكمل من طريقته فيها، وإن حصل البحث في أحوال القلوب ووسائل إصلاحها ودائها ودوائها لم يكن لذلك سبيل إلا بسلوك الطرق التي أرشد إليها. فلا يوجد علم صحيح ولا عمل ظاهر ولا باطن إلا وقد هدى الخلق إليه وأرشدهم إليه.

فهذه جمل مختصرة تدل على رسالته ﷺ، وصحة دينه، وأنه الدين الحق الذي لا يصلح البشر غيره، وأنه لا دين إلا دينه، ولا طريق إلا طريقه، ولا تصلح الأمور كلها إلا باتباعه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى الله في كل أحواله عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين. ببلدة عنيزة من الديار النجدية في ٢٠ رمضان ١٣٦٧ هـ.

